المحاضرة الرابعة: أدب الرســـائل

1.توطئة: الكتابة والتّوين:

على الرغم من أن الرسول [ص] أمر بكتابة الوحي، حيث كانت آيات القرآن الكريم تدوّن عقب نزولها تماما، لكن العرب لم ينقلوا ذلك إلى حياتهم الأدبية قطّ، ولا إلى حياتهم الاجتماعية والسياسية إلا بعد حين. وعلى الرغم كذلك من اتخاذ الرسول ص وأبو بكر الصديق كتابا يكتبون نصائح كثيرة وأمورا إدارية إلى العمال والولاة، إلا أن أول تدوين رسمي بين العرب قام به عمر بن الخطاب، ويرجع الفضل إليه أيضا في وضع التاريخ الهجري حين أمر أن تؤرخ الكتب والرسائل، وأن يكون بدء التاريخ هجرة الرسول، وأن يكون بدء السنة الهجرية المحرم.

2.من الخطابة إلى الكتابة:

كان الخلفاء والولاة أو العمال إذا أرادوا أن يبلغوا المسلمين شيئا قالوه في خطبهم في أوقت الصلوات؛ وقد أصبحت الخطابة بذلك فنا عظيما من فنون الأدب العربي، ولكن لما اتسعت الفتوح وتفرق الولاة والعمال في الأقطار احتاج الخليفة إلى أن يبلغهم أمورا تتعلق بالإدارة والسياسة فكان يكتب إليهم بذلك.

ولم يكن للرسائل في هذا الطور خصائص أدبية تميزها، فكانت كلاما عاديا قيّد بالحروف من غير تنميق ولا التزام أسلوب خاص، ومن أمثلة هذا النوع من الرسائل الرسالة التي بعثها الرسول ص إلى كسرى أبرويز ملك الفرس والتي يقول فيها:"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم غارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله. أدعوك بدعاية الله عز وجل، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيّا، ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس".

ولما أضحت الكتابة ضرورة إدارية حين اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، لم تكن الرسائل فنّا مقصودا لذاته، فكان الحكام يتركون الكتابة لكتّاب يختارونهم من ذوي الأمانة والعفّة يملون عليهم ما يشاءون إملاءً، أو يطلبون منهم أن يكتبوا عنهم ما يريدون. وقد كان الكتاب أيام الخلفاء الراشدين شخصا يختاره الخليفة ويجعله في بطانته؛ أما في الدولة الأموية فقد أصبحت "الكتابة" منصبا، ثم جعل لها ديوان خاص، منذ أيام معاوية على وجه التقريب، ومنذ أيام عبد الملك بن مروان على التحقيق.

3. ديوان الرسائل:

ديوان الرسائل يشبه رئاسة الوزارة في أيامنا؛ وكان رئيس ديوان الرسائل، ويسمى "الكاتب" ينشئ الرسائل التي يبعث بها الخليفة إلى الولاة والعمال والملوك الآخرين، ويتلقى الرسائل التي ترد على الخليفة. وكان لكاتب في أول أمره موظفا بسيطا لا تتعدى وظيفته استملاء الرسائل من الخليفة، ولكن لما تشعبت أمور الدولة أخذ الخليفة يعتمد على كاتبه شيئا فشيئا، ثم أصبح الكاتب مأمونا في ما يكتب ولا يفعل الخليفة شيئا أكثر من أن يوقّع فقط، ولذلك كان الكتاب كثيرا ما يتلاعبون بالأمور.

وقبل أن ينقضي العصر الأموي كانت الكتابة قد أصبحت صناعة ذات قواعد وأصول- في أيام عبد الحميد الكاتب، كاتب مروان الثاني- وأصبح الكاتب كأنّه وزير، له رأي في أمور، له رأي في أمور الدولة وله سلطة عظيمة في تسييرها.

4. الترسل وفضل عبد الحميد الكاتب عليه:

إن الترسل وإن كان معروفا عند العرب، فإن عبد الحميد الكاتب قد منه فنّا له قواعده وأصوله. ولا شك في أن عبد الحميد أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب، وعنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا، وهو الذي سهل سبل البلاغة في الترسل، وجعل الكتابة صناعة كسائر الصناعات. ولقد زاوج عبد الحميد في ترسله بين الأسلوب العربي والأسلوب الفارسي في الكتابة كما فعل ابن المقفع، إلا أنه زاد على ابن المقفع في أنه قصد إلى التّصنيع بينما لم يزد ابن المقفع على أن ترك نفسه على سجيتها.

وأما خصائص أسلوب عبد الحميد فهي التي تلي:

- **إطالة التحميدات:** التحميد حمد الله تعالى وتعداد آثاره وذكر آلائه. وقد أطال عبد الحميد ذلك في مطالع الرسائل وهذا من مثل قوله:" الحمد لله العلي مكانه، المنير برهانه، العزيز سلطانه، النابتة كلماته، الشافية آياته، النافذ قضاؤه، الصادق وعده [...] الذي قدر على خلقة ملكه، وعزّ في سماواته بعظمته، ودبر الأمور بعلمه وقدرها بحكمته على ما يشاء من عزمه..."

-**الإسهاب في التعبير:** ومن عادة عبد الحميد أن يعبر عن المعنى الواحد بتراكيب مختلفة إما لزيادة التبيان وإما لأمر تقتضيه البلاغة من موازنة، وهذا من مثل قوله:" فإذا أفضيت نحو عدوك واعتزمت على لقائهم وأخذت أهبة قتالهم، فاجعل دعامتك التي تلجأ إليها وثقتك التي تأمل النجاة بها وركنك الذي ترتجي به..."

- **تخير الألفاظ والعبارات:** أسلوب عبد الحميد بعيد عن أن يكون جاريا على السجية، بل هو صناعة حاذقة ونمط متخير، ومن أمثلته قوله:"أما بعد، فإن أمير المؤمنين عندما اعتزم عليه من توجيهك من توجيهك إلى عدو الله الجلف الجافي، الأعرابي المتسكع في حيرة الجهالة، وظلم الفتنة، ومهاوي الهلكة، ورعاعه الذين عاثوا في الأرض فسادا، وانتهكوا حُرمه استخفافا، وبدلّوا نِعم الله كفرا، واستحلوا دماء أهل سِلمه جهلاً..."

- **الموازنة والسجع:** الموازنة أن تأتي بجمل متتالية على نسق مخصوص تلتزم في كل جملة منها عددا معينا من الكلمات كقوله في واحدة من رسائله:" واعلم أن الظفر ظفران" أحدهما أعم منفعة، وأبلغ في حسن الذكر قالة، وأحوط سلامة، وأتمه عاقبة، وأحسن في الأمور موردا، وأصحه في الرواية حزما، وأسهله عند العامة مصدرا...". وأما السجع فإن عبد الحميد لم يتكلفه، بل أخذ منه بقدر فقد تجد جملة مسجوعة آنا ومهملة آنا، ومع أن عبد الحميد أكثر تطلبا للتسجيع في تحميداته منه في رسائله.

- **الابتعاد عن البديع:** لا يتلكف عبد الحميد البديع من جناس وطباق ولا يتطلبه، ول رجعنا إلى رسالته "إلى الكتاب" لوجدنا أنها نحو ألف كلمة، ومع ذلك فإنك لا تجد فيها من البديع إلا الشيء القليل الذي بصورة عفوية.

5. الرسائل حتى منتصف القرن الرابع:

لما شاعت الرسائل في الناس برز فيها أمران بروزا شديدا:

- أصبح الترسل فنا له قواعده وأصوله وملابساته حتى خرج عن طوق عامة الناس فتصدى له الأدباء الكبار والكتاب المنشئون من أصحاب الوزاة والإدارة كابن العميدج والصاحب بن عبّاد، أو من الذين وهبوا المقدرة والذوق والتأنق كالخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني والحريري. ولما كان التأنق في الرسائل ضروريا لكل من أراد إرسال رسالة فقد نشأ كتاب اتخذوا كتابة الرسائل للآخرين صناعة يتقاضون عليها الأجر.

- كانت الغاية من الرسالة إظهار المقدرة الفنية من ناحية البلاغة وإبراز ما يحفظ المنشئ من أمثال العرب وأشعارهم وما يعرف من علومهم في الصرف والنحو والعروض والفقه، بصرف النظر عن الغرض الأساسي الذي تنشأ الرسالة من أجله، حتى إن بعض الرسائل لم يكن لها غرض خارج عن إظهار هذا التأنق اللغوي وهذه الثروة الكلامية المجموعة في الذاكرة.

6. أنواع الرسائل: يمكن تقسيم الرسائل الفنية إلى ثلاثة أنواع رئيسية هي:

1. الرسائل الرسمية (الديوانية): ونعني بها الرسائل الخاصة بشؤون الدولة في الداخل والخارج كالتولية والتعيين ورسائل التوجيهات والوصايا والأوامر الإدارية المختلفة. والديوان مصدرها وموردها، ولهذا سميت أيضا الرسائل الديوانية، كانت البداية الفعلية لهذا النوع من الرسائل بتلك المتعلقة بالدعوة إلى الإسلام، والأحلاف التي كانت بين الرسول (ص) وبين المشركين وكذا كتب الأمان، وكانت هذه الرسائل تبتدئ غالبا بالبسملة مشفوعة باسم المرسل والمرسل إليه، ثم السلام والتحميد، وكانت تميل إلى الإيجاز أيام الخلفاء الراشدين والاقتباس من القرآن الكريم، أما السجع والازدواج فكانا بقدر[1].

2. الرسائل الخاصة: ونعني بها الرسائل الشخصية التي لا تتعلق بشؤون الدولة العامة، وقد جرى العرف على تسميتها "الرسائل الإخوانية" إلا أن سمة الإخوانية لا تتجلى في بعض الرسائل التي تخلو من المودة والإخاء، وقد تفيض بالتهكم والتجريح والهجاء، ويمكن تقسيم هذا النوع إلى مجموعتين، أولاهما الرسائل الخاصة شبه الرسمية التي يحتفظ فيها بالبعد الاجتماعي بين الكاتب والمخاطب من مثل الرسائل التي يتبادلها الخليفة أو الأمير أو الوزير مع من دونه في المنزلة الاجتماعية في أمور خاصة[2]. وثانيتهما الرسائل الخاصة الذاتية وهي التي تتناول ما يدور بين الأصدقاء والأحباب من عتاب وشوق وعزاء

---

[1]- كمثال على هذا النوع من الرسائل، رسالة أبي بكر الصديق إلى أهل اليمن. قال فيها: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. من خليفة رسول الله ﷺ إلى من قرئ عليه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن. سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإن الله تعالى كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا خفافا وثقالا، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والجهاد فريضة مفروضة والثواب عند الله عظيم، وقد استنفرنا المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك وعسكروا وخرجوا، وقد حسنت في ذلك نيتهم [...] فسارعوا عباد الله إلى ما سارعوا إليه، ولتحسن نيتكم فيه، فإنكم إلى إحدى الحسنيين، إما الشهادة، وإما الفتح والغنيمة، فإن الله تبارك وتعالى لم يرض من عباده بالقول دون العمل، ولا يزال الجهاد لأهل عداوته، حتى يدينوا بدين الحق ويقروا لحكم الكتاب، حفظ الله لكم دينكم وهدى قلوبكم وزكى أعمالكم ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين. والسلام عليكم.

[2]- كتب عمر بن عبد العزيز ﷺ لما ولي الخلافة إلى الحسن بن أبي الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن رحمه الله: اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنفها من أذى الحر والقر. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً؛ يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرها، ووضعته كرها، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله. .../...

وغيرها من العواطف. ومن بين الموضوعات الكثيرة التي طرقتها الرسائل الخاصة نذكر: العتاب والاعتذار والشكوى والاستعطاف والاستمناح والطلب والمودة والصداقة والهجاء.

3. **الرسائل الأدبية:** هي ذلك اللون من الترسل الذي يؤدي موضوعات كانت من قبلُ وقفًا على الشعر. وأسلوبها لا يخلو من سخرية أو وصف أو عاطفة، كما ينقل إلى النثر أهم أدوات الشعر من خيال وتصوير. هذه الرسائل تحتوي على نظرات في الحياة والأحياء وحكم عن النفس وموقف من المجتمع. ولعل خير مثال على هذا النوع من الرسائل، رسائل الجاحظ الأدبية كرسالة التربيع والتدوير، ورسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ورسالة البلاغة والإيجاز.

6. أسلوب الرسائل الفنية وخصائصها:

لم تكن خصائص النثر في القرن الهجري الرابع - عصر المتنبي في الشعر، وأبي الفرج الأصفهاني وابن العميد وبديع الزمان – جديدة مبتدعة وإنما كانت خصائص ملموحة في أساليب المتقدمين، ثم لما جاء منشئو القرن الرابع أطنبوا فيها وبالغوا، وشقوا منها وولّدوا. ومن أهم تلك الخصائص نذكر:

- **السجع:** لقد كان السجع ميزة عامة في النثر، على أن المنشئين ذهبوا فيه ثلاثة مذاهب: مذهب الإيغال ومذهب الاعتدال ومذهب الإهمال.

- **التصنيع:** وكان غرام المنشئين بالصناعة عظيما حتى أصبحت الصناعة نفسها الغرض الأول من إنشاء الرسائل عند بعضهم.

- **الموازنة:** أوغل المنشئون عامة في المقابلة والموازنة ووقفوا همتهم على أن يؤثروا في القارئ من طريق رصف الكلمات رصفا هندسيا متناسقا محكما، حتى إن القارئ نفسه لينسى تطلب المعاني وهو يتابع هذا البناء الهندسي الجميل من الكلمات المتوازنة والمعاني المتقابلة.

...../... واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها! وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً. فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه واذكر يا أمير المؤمنين " إذا بعثر ما في القبور. وحصل ما في الصدور " ، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فالآن يا أمير المؤمنين وأنت مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل. لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين؛ فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك مع أوزارك، وتحمل أثقالك مع أثقالك. ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك. و لا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم. إني يا أمير المؤمنين، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهي من قبلي، فلم آلك شفقة ونصحاً، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

- **الإطناب:** ما دام اعتماد المنشئ في رسائله على الديباجة في الدرجة الأولى، فإن اللفظ يكون في هذه الرسائل أوسع من المعنى حتى إن المنشئ ليدير لك الفكرة الواحدة أو المعنى الواحد في بضعة أسطر، فإذا نزعت المعنى الأساسي وسبكته في لغة سهلة تضاءلت تلك السطور إلى سطر واحد أو سطرين اثنين.

- **الاقتباس والتضمين:** يوشي المنشئ سائله عادة بالآيات والأحاديث أحيانا وبالشعر والأمثال، لا لأن كل ما يستشهد به ضروري لتبيان المعنى، ولكن لأمرين اثنين: احدهما أن يدل بذلك على ثروته الأدبية؛ وثانيهما أن يجعل من الفقرات المقتبسة بناء فنيا متقابلا متوازنا. فمن أشهر ما يمكن أن يشار إليه رسالة بديع الزمان الهمذاني إلى أبي بكر الخوارزمي: أنا بقُرْب الأستاذ أطال اللَّهُ بقاه، "كما طَرِب النّشْوَان مالَتْ به الخمرُ"، من الارتياح للقائه، "كما انتفض العُصفور بلّله القَطْرُ"، ومن الامتزاج بولائه "كما التقَت الصَهباءُ والبارد العَذْبُ"، ومن الابتهاج لمَزَاره، "كما اهتزّ تحت البارح الغُصنُ الرَطْبُ"، فكيف نَشَاطُ الأستاذ سيدي لصديق طرأ إليه ممَا بين قَصبتي العراق وخُرَاسان، بل عتبتي نيسابور وجرجان؟ وكيف اهتزازه لضيف: رثّ الشمائل مُخْلَق الأثْوَابِ . . . بَكَرَتْ عليه مُغيرَةُ الأعْرَابِ

وهو - أيّدَه الله - وليُ إنعامه، بإنفاذ غُلاَمه، إلى مستقري، لأُفضي إليه بما عندي إن شاء الله.

7. **التوقيعات:** يراد بها التعليق على الرسائل الواردة إلى الديوان بما يناسبها بأسلوب موجز دقيق، وربما بلغ بالإيجاز حد الإعجاز. ولقد تعوّد ملوك الفرس ووزرائهم أن يكتبوها على ما يقدّم إليهم من تظلمات الأفراد وشكاواهم. وقد انتشر ها الفن في العصر العباسي فكثر من الخلفاء والوزراء، وقد كانت هذه التوقيعات تشيع بين الناس، ويكتبها الكتاب ويحفظونها.

ومن أمثلتها: توقيع جعفر البرمكي لعامل كثر التظلم منه:"كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما اعتدلت، وإما اعتزلت" وتوقيعه لمحبوس طلب العفو:"العدل أوثقه والتوبة تطلقه"، وتوقيعه لعمال طلبوا زيادة في رواتبهم:"قليل دائم خير من كثير منقطع. ومن توقيعات هرون الرشيد تلك التي رد بها على رسالة نقفور ملك الروم:"من عبد الله هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم: فهمت كتابك والجواب ما تراه لا ما تسمعه"، ووقع حينما بلغة مقتل جعفر البرمكي:"أنبتته الطاعة وحصدته المعصية". ووقع على طلب يحي بن خالد يستعطفه من سجنه:"عظيم ذنبك أمات خواطر العفو عنك".